

# العربية تحمل في ذاتها نزعنا إنسانية . هي إسها والعرب في حضارة العالم الأسيا ذكريتة الإرسنوزية

في الالف قادر على انشاء رسالة الى صديق بلاينية مستقيمة ولكن اذا استدمى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة . بل لقد يقروضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمة شعر العرب انفسهم - الفارو » .

ولكن لما كرت أوروبا على العرب واحتلت فرنسا لبنان ارتفع صوت مائل لصوت الفارو في الشكوى غير ان الشكوى في هذه المرة كانت من مدرس اللغة العربية على اهمال الناس لغة اجدادهم من اجل لغة الفاتحين ( اللغة الفرنسية )

واذا كان مصير اللغة يتبع مصير متكلميها افلا تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيا الى الاذهان ؟ في مجال المفاضلة بين لغة واخرى كمجموعة من الادوات . يقول الفكر الالماني هوستون شامبرلسن : لو بقي « كانت » على لغة اجداده الانجليز ما كان بلغ ما بلغ من شأو في الفلسفة . وهو يستعمل اللغة الالمانية . واذا كانت شعوب أوروبا قد اتخذت اللغة اللاتينية لغة اساسية في تعليم الناشئة ، فان الاختيار لم يكن بتاثير الدكريات التاريخية ( ذكريات روما القديمة ) بل لان اللاتينية اصلح من لغات هذه الشعوب لابضاح المفاهيم الانسانية .

احد المؤرخين الفرنسيين ( ارنست دين ) يقول في حديثه عن الوحدة الالمانية ان مصير اللغة يتبع المصير السياسي لتكلمها ويضرب لنا مثلا بتساوب الناس في الاقبال على اللغة الالمانية او اللغة الفرنسية تبعا لمركز كل من المانيا وفرنسا السياسي في العالم ، وللعرب تجاربهم من هذا القبيل ، فلما بلغ المد العربي في غضون القرون الوسطى سهول فرنسا أصبحت ثقافة العرب منهل الشعوب الاوروبية واليك بعضا مما ورد في هذا الشأن على لسان احد ادباء ذلك العصر :

« يطرب اخواني المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين ، لا لتنفيذها بل للحصول على اسلوب عربي صحيح رشيق ، فابن تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة ، وابن ذلك الذي يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسول ؟ وا اسفاه .. ان الشباب المسيحيين الذين هم من ابرز الناس مواهب ليسوا على علم من أي ادب ولا اية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العربية ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وهم يترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجون في زوايا اذا ذكرت الكتب المسيحية بان تلك المؤلفات غير جديرة بالشفاهم فوا حر قلباه . . . لقد نسي المسيحيون لغتهم ولا يكاد يوجد منهم واحد

وأما مقدرة اللسان العربي على البرهان فقد استرعت انتباه كل من أولى عنايته دراسة لغة الضاد واليك بعضاً من ما تورد القول في هذا الشأن :

« فإما ما نحن بصدد ذكر اللغة العربية فلا نزاع في ميزتها على سائر اللغات وفضلها ، أما السعة فالأمر فيها واضح ومن تتبع فيها جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد ، على أن اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً » ( سر الفصاحة لان سنان الخفاجي ) يضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات ( الزهر في علوم اللغة للسيوطي ) نعم أن المعاني يمكن أن يعبر عنها باللغات الأجنبية ، ولكن العربية تستطيع أن تنقلها بدقة أكثر وإيجاز أتم . ( الزهر ) وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من البسر في استعمال المجاز ، وأن ما بها من كنيات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق لغة بشرية أخرى . . ومثل هذا الحال يجعل الترجمة المرصية من العربية واليها أمراً مستحيلاً . وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني ، وفي النقل اليها يبين ذلك أن الصورة العربية لأي مثل هي أقصر في جميع الحالات فليس كلام ينقل الى لغة العرب إلا ويجهل الثاني أوجز من الأول مع سلامة المعاني وبقالها على حالها .

ولقد ادهشت اللغة العربية بمقدرتها على البيان . يقول ابو داود الطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية: انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السريانية قبحت وحسنت « واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسناً . ويقول الفارابي بصدد البيان في لغة الضاد . هذا اللسان كلام أهل الجنة وهو المنزه من بين الالسنه من كل نقيصة والمعلي من كل خسيصة والمهدب مما يستهجن أو يستبشع وفضلاً من ذلك فان فصاحة العرب الفطرية مجيبة .

ومع ما عليه مركز العرب السياسي اليوم من وهن فان الأستاذ هنري دوباستيه يكتب في جريدة ( لوموند ) عن رسالة اللغة العربية نحو الثقافة الانسانية :

« ان اللغة العربية التي نبتت في الصحراء ، حيث يشخص النظر في كل ليلة نحو السماء الثلاثة بالنجوم ، ان تلك اللغة بمحتواها الانساني والالهي ، توجه الأذن نحو السمو ، نحو المثل الأعلى ، نحو المطلق . وهكذا فان اللغة العربية تحمل في ذاتها نعمة انسانية كانت نعمة المسيح والتي لا تستطيع لغاتنا البربرية البتة أن تعبر عنها بوجه من الوجوه وهي تشكل اسهام العرب في حضارة العالم . وهذه اللغة هي كنز العرب .

ونحن الاحفاد ، يحق لنا ان نضيف رأينا في مزايا اللسان العربي الى آراء السابقين في هذا المضمار ولاسيما اذا كان هذا الرأي يفسر لنا سر تفوق هذا اللسان على غيره من اللغات . فنحن نرى أن اللسان العربي أقوى من اللغات الأخرى في توضيح المفاهيم الانسانية بمشابة حسن الرؤية من حواس الجسد . ومزية اللسان العربي هذه ترجع الى الخيال المرن المتضمن في الكلمة والخيال المرن او الصورة هذه تبرز من ثنابا البنية الاشتقاقية للكلمة العربية كظهور صورة الاشراق في معنى كلمة « ذكاه » المتضمنة صورة ذكاه الشمس . ولقد مثلت ذات مرة الكلمة العربية بين شقائقتها في الاسرة بمصباح في ثوبا يزداد معناها تالفا بتجاوبه مع معاني شقائقه في الاسرة . كما مثلتها مرة أخرى بنفيسة في انشودة من حيث اثارها للانفعالات العميقة في تشخيص المعنى وتحقيقه .

فالى م يرجع امر مزايا اللسان العربي هذه ؟ ترجع هذه المزايا الى نشأة لساننا البدائية والانسجام بين المحسوس والمعقول بين المسميات الحسية وبين المعاني المجردة كما ترجع الى الانسجام بين المضمون وبين العبارة ، أي بين المعنى المتضمن في العبارة نفسها . ظل اللسان العربي امتداداً لعبارة الهيجان الطبيعية وتجسيداً لها . الاخ والاخوة والاخاه هي امتداد لعبارة أخ عبارة التوجع الطبيعية . واذا اضيف الى صوت الهيجان اصوات أخرى كالاصوات المتحدثة في الفم (بت) الحاصلة من تقاطع اللسان بالنطق ومنها . بتر والباير واذا اضيفت الاصوات المقتبسة من الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ومنها خرب وخر ؟

بل هناك البيان الصوتي أيضا . معلوم ان اللسان امتداد صوتي لعبارة الهيجان التي تجسد الشعور وتشارك بتجسيدها آياه الآخرين . واليك مثالا عن هذا المعنى في لساننا من الازراب .

حركة الفتح تعبر عن معنى الركون الحاصل من ركون اللسان عند خروج الصوت وتمدد الدهن في المفعول والفعل الماضي الى المشاركة في هذا المعنى . وحركة الضمة الحاصلة من تدافع الصوت تعبر عن الفعالية وتمدد الدهن للمشاركة في معنى الفعالية في الفاعل وفي الفعل المضارع .

ذلك هو اللسان العربي بمثل الحياة في صمودها نحو الحق والحقيقة .

واذا تجمع ذلك كله فان الحياة تنمو في تطورها بالاستناد الى الإيقاع والى حسن الرؤية المتصفة بالوضوح والدقة .

فالى نشأة كل من الكلمات العربية من صوت طبيعي يرجع الإنسجام بين المحسوس والمقول . كلمتا ذكاء - الشمس والذكاء في النفس يرجعان الى صوت ذلك وتكون الشرارة الى حالة من ذلك صورة حسية للاشراق ( الذكاء ) في النفس . وكذلك الكلمتان شريعة وشارع يرجعان الى صوت شر والشارع تعريف بالمحسوس للشريعة كمجموعة قواعد يسلك عليها الناس في علاقاتهم بعضهم مع بعض .

وليس البيان في اللسان العربي بالمجاز فحسب